مقياس: فلسفة النقد

السنة الثانية ليسانس (دراسات نقدية)

المحاضرة الثانية: الفلسفة المثالية للنقد

1- تعريف الفلسفة المثالية واتجاهاتها:

تعد الفلسفة المثالية أقدم الفلسفات الفكرية، وهي ترجع إلى كل من سقراط وأفلاطون، واشتقت كلمة مثالية من المثال (Idéal)؛ الذي يعني فيما يعني النموذج، والمثال عادة ما يكون صورة في منتهى الكمال للشيء أو الفعل.

وقد استخدم مصطلح المثالية (Idéalisme) لأول مرة في القرن السابع عشر عن طريق الفيلسوف الألماني لايبتنز (Leibniz) عندما أطلقه على فلسفة أفلاطون تمييزا لها على الفلسفة المادية.

والمثالية مذهب فلسفي يرى أن العقل هو أساس المعرفة، وأنه هو الحقيقة النهائية؛ فالمادة مظهر تتبدى فيه الروح، والروح هي الفاعل الذي يملك الإرادة.

والمثالية اتجاهان:

- **المثالية القديمة:** وهي المثالية الأفلاطونية التي ابعثت من أب الفلسفة القديمة 'سقراط'، وثبتت دعائمها على يدي تلميذه 'أفلاطون'؛ ويرى هذا الاتجاه أن الأفكار والمعقولات أو المثل موجودة وجودا أسمى من الوجود المحسوس؛ لأنها هي المبادئ النموذجية الأصيلة للأشياء.

- **المثالية الحديثة:** وهي المثالية الكانطية؛ التي مهد لها أبو الفلسفة الحديثة 'ديكارت' في مبدئه المشهور باسم "الكوجيتو": (أنا أفكر فإذن أنا موجود)، وأبرزه

'بركلي' في تقريره أن (الوجود هو كون الشيء مدركا)، ثم شيد بناءه 'كانط' على أساس من نقد العقل في جوانبه الثلاثة: النظر والعمل والذوق.

ويرى هذا الاتجاه أن الأشياء أو الموضوعات ليست سوى انطباعات حسية أو أفكار لا يمكن أن تتحقق في الوجود إلا على نحو ما، أي باعتبارها تمثلات ذهنية، والأشياء ليست موجودة بذاتها وجودا مستقلا عن القوة المتعقلة التي تدركها، بل إن وجودها مستفاد من هذه القوة ذاتها.

والفرق بين هذين الاتجاهين أن مثالية أفلاطون (مطلقة)؛ لأنها ترى في الفكرة أو المثال موجودا متعاليا متميزا، وهو عنصر المعرفة المطلقة، وهو موجود لا يتغير، أما المثالية الحديثة فهي مثالية (نسبية)؛ تنظر إلى العالم بنظرة الإنسان، فهي تركز على المعرفة الإنسانية التي ترى أنها غير مفارقة لعالم المثل، والمثل فيها مندمجة في الأشياء الخارجية غير متعالية عليها كما ترى المثالية الأفلاطونية.

ويتفق الاتجاهان في أنهما مذهبان في المعرفة؛ فالفلسفة المثالية هي الفلسفة لعقلية الكلية؛ التي ترى أن الواقع إن لم يكن منبثقا عن الفكر ومعتمدا عليه في وجوده، فهو مرتبط به، فلا واقع دون فكر، ولا فكر دون عقل.

2- المثالية الأفلاطونية والتفكير النقدي:

أ- المدرسة المثالية الأفلاطونية:

جاء أفلاطون بعد سقراط ليقدم تصورا فلسفيا عقلانيا مجردا ولكنه تصور مثالي؛ لأنه أعطى الأولوية للفكر والعقل والمثال بينما المحسوس لا وجود له في فلسفته المفارقة لكل ما هو نسبي وغير حقيقي، ولأفلاطون نسق فلسفي متكامل يضم تصورات متماسكة حول الوجود والمعرفة والقيم.

وقد قسم أفلاطون العالم الأنطولوجي (الوجود) إلى قسمين: العالم المثالي والعالم المادي؛ فالعالم المادي هو عالم متغير ونسبي ومحسوس، وقد استشهد بأسطورة الكهف ليبين بأن العالم الذي يعيش فيه الإنسان هو عالم غير حقيقي، وأن العالم الحقيقي هو عالم المثل الذي يوجد فيه الخير الأسمى، والذي يمكن إدراكه عن طريق التأمل العقلي والتفلسف(فالطاولة التي نعرفها في عالمنا المحسوس غير حقيقية، أما الطاولة الحقيقية فتوجد في العالم المثالي)، وتوجد المعرفة الحقيقية في عالم المثل الذي يحتوي على حقائق مطلقة ويقينية وكلية، أما معرفة العالم المادي فهي نسبية تقريبية وجزئية وسطحية.

كما تدرك المعرفة في عالم المثل عن طريق التفلسف العقلاني، ومن هنا، فالمعرفة حسب أفلاطون تذكر والجهل نسيان، ويعني هذا أننا كلما ابتعدنا عن العالم المثالي إلا وأصابنا الجهل، لذا فالمعرفة الحقيقية أساسها إدراك عالم المثل وتمثل مبادئه المطلقة الكونية التي تتعالى عن الزمان والمكان، ومن ثم فأصل المعرفة هو العقل وليس التجربة أو الواقع المادي الحسي الذي يحاكي عالم المثال محاكاة مشوهة، فجميع القيم الأخلاقية من خير وجمال وعدالة نسبية في عالمنا المادي، ومطلقة حقيقية في عالم المثل المطلق والأزلي.

ويؤسس أفلاطون في" جمهوريته الفاضلة " مجتمعا متفاوتا وطبقيا، إذ وضع في الطبقة الأولى الفلاسفة والملوك واعتبرهم من طبقة الذهب، بينما في الطبقة الثانية وضع الجنود وجعلهم من طبقة الفضة، أما الطبقة السفلى فقد خصصها للعبيد وجعلهم من طبقة الحديد؛ لأنهم أدوات الإنتاج والممارسة الميدانية؛ ويعني هذا أن أفلاطون كان يأنف من ممارسة الشغل والعمل اليدوي والممارسة النفعية، وكان يفضل إنتاج النظريات وممارسة الفكر المجرد، كما طرد أفلاطون الشعراء من جمهوريته الفاضلة؛ لأنهم يحاكون العالم النسبي محاكاة مشوهة، وكان عليهم أن يحاكوا عالم المثل بطريقة مباشرة دون وساطة نسبية أو خادعة تتمثل في محاكاة العالم الوهمي بدل محاكاة العالم الحقيقي.

وهكذا يتبين لنا أن فلسفة أفلاطون فلسفة مثالية مفارقة للمادة والحس، تعتبر عالم المثل العالم الأصل بينما العالم المادي هو عالم زائف ومشوه وغير حقيقي. كما تجاوز أفلاطون المعطى النظري الفلسفي المجرد ليقدم لنا تصورات فلسفية واجتماعية وسياسية في كتابه "جمهورية أفلاطون"، ويلاحظ أيضا أن التصور الأفلاطوني يقوم على عدة ثنائيات: العالم المادي في مقابل العالم المثالي، وانشطار الإنسان إلى روح من أصل سماوي وجسد من جوهر مادي، وانقسام المعرفة إلى معرفة ظنية محسوسة في مقابل معرفة يقينية مطلقة وعلى المستوى الاجتماعي، أثبت أفلاطون أن هناك عامة الناس وهم سجناء الحواس الظنية والفلاسفة الذين ينتمون إلى العالم المثالي لكونهم يتجردون من كل قيود الحس والظن وعالم المادة والحس.

ب- النقد عند أفلاطون (محاورة إيون نموذجا):

كان للسوفسطائيين فضل كبير في التمهيد لأفلاطون؛ من خلال بحوثهم في الخطابة واللغة، وجدلهم حول معاني الكلمات، واختلافهم في إدراكها، كما كان لتأثير أستاذه سقراط فضل في محاوراته التي نقل من خلالها بعض آرائه متمثلا به طرفا فيها، وشكلت هذه المحاورات نصوصا نقدية عرض أفلاطون فيها آراءه حول الشعر والنقد.

وقد كتب أفلاطون محاورته التي عنوانها (إيون) في عشر سنين الأولى من القرن الرابع قبل الميلاد، وتدور هذه المحاورة بين 'سقراط' والمنشد 'إيون'؛ وفيها يتناول أفلاطون مسألتين مهمتين من صميم النقد الأدبي؛ أولهما: ما مصدر الشعر لدى الشاعر: الفن أم الإلهام؟ وثانيتهما: ما الفرق بين حكم الشاعر والناقد الأدبي على الشيء من جهة وبين حكم العقل والعلم على الشيء نفسه؟

- **المسألة الأولى:** يستدرج فيها سقراط محاوره إيون، حتى يقر له بأنه لا يهتم إلا بشرح شعر 'هوميروس' وإنشاده دون سائر الشعراء، وإنه في هذا الشرح والإنشاد لا يصدر عن قواعد فنية معينة، ولا عن مبادئ عقلية خاصة، بل عن نوع من النشوة الفنية يغيب عنها شعوره، وهو ما يدعوه أفلاطون (الإلهام)، ومصدره إلهي محض، ويستنتج سقراط في المحاورة بأن الشاعر والناقد لا يصدران عن العقل وإنما عن

الإلهام الإلهي؛ فالشعراء مترجمون عن الآلهة، وأما المنشدون فهم ناقلون عن الناقلين، وفي هذا يقول سقراط لإيون: "إن براعتك في الكلام عن هوميروس لا تعزى إلى فن، ولكنها تأتيك من قوة إلهية تحركك"، وهذا ما اتجه إليه كثير من شعراء ونقاد عصر النهضة في أوروبا ممن اعتدوا بالإلهام والقريحة في الشعر لا الصنعة والتعلم.

- **المسألة الثانية:** وهي الفرق بين موقف الشعر وموقف العلم والعقل من الأشياء؛ يقرر فيها أفلاطون أن مقدرة الشاعر على تأليف شعر في شيء ما غير مقدرة المرء على شرح الشيء نفسه شرحا عقليا، وأن الشعر ليس هدفه الشروح العلمية للأشياء.

ويعد هذا الرأي الأساس الذي قام عليه هجومه على الشعراء في نظرية المحاكاة عنده؛ إذ كان يرى أن الوجود ينقسم إلى ثلاث دوائر: دائرة المثل والمدركات العقلية وهي دائرة الحقائق الكلية، ودائرة العالم المحسوس أو الطبيعة وما يتصل بها من الإنسان وعواطفه، وكل شيء في هذه الدائرة الثانية محاكاة أو صورة لمثاله في الدائرة الأولى، ثم دائرة الفنون والشعر وكل ما فيها محاكاة وتقليد للدائرة الثانية؛ فالفن من شعر وغيره ليس إلا محاكاة لمحاكاة أو صورة لصورة، وفي ذلك بعد واضح عن عالم المثل، ولكن الأصل في الشعر أن يكون محاكاة فهو لا يحاكي الطبيعة محاكاة طبق الأصل، بل يكملها ويضيف إليها من عواطفه ومشاعره وخياله.